الفصل الثاني

الحروف الهجائية : اصلها واختراعها ونظرياتها واهميتها

لقد اتجهت اغلب انظمة الكتابة التي درسناها سابقاً الى ان تصبح أنظمة صوتية ، اي ان تصبح انظمة قادرة على ان تمثل اصوات اللغة الملفوظة . ولكن لو اريد للكتابة ان تصبح بحق مفيدة للنوع الانساني ، فقد كان من الضروري ان تبسط اساليب التعبير عن الاصوات بحيث يستطيع الفرد العادي ان يتعلم وان يستعمل هذه الاساليب بسهولة ويسر . وان عملية التبسيط هذه قد أدت وقد قادت الى ايجاد عدد قليل من الاحرف المكتوبة والمطبوعة ، وهي تشكل ما اصطلح على تسميته باسم الاحرف الهجائية .

يستعمل الآن في العالم حوالي خمسين نظاماً هجائياً مختلفاً . ويذكر العلماء ان الانسان استعمل مدى عصور التاريخ من اجل تسجيل وتدوين سجلاته حوالي ٢٠٠ نظام الفبائي مختلف[1] . هذا وان بعض الابجديات المعاصرة تستعمل لكتابة لغة واحدة مثل الالفبائية اليونانية ، وبعضها يستعمل لكتابة عدد من اللغات كالالفبائية العربية . واننا نستعمل يومياً احرف الهجاء بمنتهى السهولة وبدون جهد ؛ معتبرين ذلك منحة من المنح التي نستعملها بدون وعي منا لذلك كالهواء المحيط بنا مثلاً . فنحن لاندرك ان كل حرف من حروف الهجاء التي نستعملها قد مر بعملية طويلة وبطيئة من عمليات التطور استغرقت زمناً طويلاً .

والسؤال الآن : ماهي الألفبائية ؟ انها مجموعة من الرموز بشكل مجرد كل التجريد يمثل كل رمز صوتاً اساسياًمن اصوات لغتنا الملفوظة . ولكن هذا لايعني ان هذه المجموعة وصلتنا بهذا الشكل وانها كانت كاملة منذ اخترعت . بالعكس لقد مرت الحروف الهجائية في تطور بطيء استمر حوالي اربعة الاف سنة ولاتزال بعيدة عن الكمال . وبالحقيقة فان ايجاد ابجدية كاملة صوتية لدراسة الكلام

(١) Rider op. cit, P. 4

الانساني دراسة علمية يعتبرهدفاً غير قابل للتحقيق . ذلك ان احرف الهجاء اصبحت مستعملة بشكل يبدو معه أن من المستحيل او من غير الممكن تغييرها .

ويعتبر اختراع نظام هجائي للكتابة واحداً من اعظم الانجازات التي تمت في حقل الكتابات الانسانية حسب قول روتان[1] . ولكن السؤال المهم الآن : من اخترع الالفبائية وأين ومتى تم ذلك لأول مرة ؟ ان الجواب على هذا السؤال يقتضينا الغوص في اعماق التاريخ والرجوع الى الوراء الى اقدم العصور . ولن نستطيع ان نجمع اكثر من الادلة المبنية على الاستنتاج والتخمين . ولقد جرت دراسات كثيرة وعميقة للموضوع ، ولكن العلماء لايزالون مختلفين في كثير من النقاط ، وان يكن قد اتفقوا على الهيكل العام للموضوع . هذا ولدينا شاهد في كلمة الف باء يمكن ان يقود بحثنا في هذا المضمار . ذلك ان كلمة الف باء هي لاشيء اكثر من اسم الحرفين الاوليين الفا ، بيتا Alpha , Beta من ابجدية قدماء اليونان . واذا تعمقنا هذا الشاهد ووسعنا دائرة البحث لاحظنا ان حروف الابجديات السامية [كالفينيقية القديمة والعبرية والعربية وغيرها] لها اسماء ايضاً ، وان اسماء حروف هذه الابجديات السامية تشابه مشابهة مثيرة الاسماء اليونانية [في الابجدية العربية الف ، باء ، ثاء . . .] وهكذا ينبع الاستنتاج ويفرض نفسه علينا فرضاً وهو ان قدماء اليونان حصلوا على اسماء حروفهم الهجائية ، على الاقل ، من اصول سامية .

ولكن يبدو لنا ان من المستحيل ان يكون اليونانيون اخذوا اسماء الحروف دون الحروف الممثلة لتلك الاسماء ، ذلك ان اسماء الاحرف الهجائية كان لها معانٍ محددة لدى الساميين الذين استعملوها لاول مرة ، ولكن لم يكن لها معنى لدى اليونان الذين لم يتمكنوا حتى ان يلفظوا هذه الاحرف بشكل صحيح . ويبدو ان قدماء الاغريق الذين تعلموا استعمال الحروف الهجائية قد ارتبط لديهم ارتباطاً تاماً اسماءُ الحروف التي لامعنى لها مع الحروف ذاتها وتطابقت تلك الاسماء مع الحروف نفسها ، تلك الاحرف التي تعلموها من شعب اجنبي غريب عنهم .

هذا ، ولقد قام العلماء والبحاثة بدراسات دقيقة للنقوش القديمة ، وذلك لمعرفة مهد الابجدية واصلها . ولقد اكتشف العلماء في النقوش الفينيقية ادلة

(1) Ullman op. Cit, P. 11

كثيرة على وجود نظام أبجدي مؤلف من احرف هجائية . ولقد تطابقت اغلب هذه الحروف تطابقاً مدهشاً مع الاحرف الهجائية التي وجدت في اقدم النقوش اليونانية باعتبارها الاصول التي تحدرت منها الاحرف اليونانية . ولقد عزت التقاليد اليونانية أيضاً الى الفينيقيين شرف اختراع الكتابة واطلقت عليهم لقب [مخترعي الكتابة] . ولكي تكمل الصورة نقول انه في وقت ما من اوقات الماضي البعيد حصل سكان عدد من بقاع بلاد اليونان على الابجدية عن طريق الاتصال والاحتكاك بالفينيقيين المتجولين الملاحين .

هذا وان الالفبائية اليونانية ، اصبحت في مستقبل الايام السلف الذي تحدرت منه الألفبائية الرومانية والمعتبرة انها اصل اغلب الابجديات الاوربية المعاصرة . هذا وان اسلاف اليونان القدامى ، المستقرين على شواطىء اسيا الصغرى ، والمتمركزين في جزائر البحرالأيجي ، وفي البر اليوناني نفسه قد تركوا بعض الدلائل التي تشير الى احتمال استعمالهم نظاماً للكتابة اشتق من كريت . ولكن لما حلت الالفبائية في بلاد اليونان زالت جميع اساليب الكتابة الاخرى ولم يعد هناك اي دليل على وجودها . وكذلك ظلت جزيرة قبرص تستعمل نظاماً مقطعياً من اساليب الكتابة ، ولكن ذلك كان استثناءً . ويمكن القول بثقة تامة ان العالم اليوناني تعلم من الفينيقيين فن الكتابة ونشره في بلاده اولاً ومن ثم في العالم الغربي ثانياً . ذلك ان الفينيقيين الذين سكنوا شواطىء سورية الحالية كانوا ملاحين من الطراز الاول وكانت سفنهم مزودة باشرعة ارجوانية ويبلغ طول هذه السفن حوالي ٧٠ قدماً ، وهم اول من دار حول افريقيا ، وقد فعلوا ذلك قبل ان يحاول البحارة الاوربيون بالفي سنة . وكانت تجارة الفينيقيين تشمل العالم المعروف آنذاك وكانوا وسطاء في نقل البضائع من الصناع الى المستهلكين . وكانت مصر البلد المفضلة لدى الفينيقيين للاتجار معها وذلك بسبب وجود مناجم الحديد الموجودة في سيناء . وقد تأسس نظام حسابي من اجل التبادل التجاري ، ولكن الكتابة الهيراطية كانت مثقلة ومعقدة الى الحد الذي لم يستطع الفينيقيون النشطون تقبلها ، ولذلك برز من التفاعل هذا رموز سهلة سريعة من اجل تسجيل سجلات التجارة .

والان يواجهنا هذا السؤال المعقد : كيف ومتى ظهرت الابجدية الفينيقية ؟ ولقد ظل العلماء فترة طويلة وهم يتخبطون في دياجير ظلمات التاريخ . لقد وجدت آثار كثيرة تعود لذلك العصر ، وهي تحمل نقوشاً بالاحرف الفينيقية . ولكن هذه الاحرف هي احرف هجائية بشكل كلي ، وقد مرت في مرحلة تطور طويلة ، ولااثر لكتابة تصويرية او مقطعية بها . كيف امكن ان تتطور هذه الاحرف الساكنة بدون ان يكون لها اصول فكرية ؟ هل اخترع هذه الحروف فينيقي عبقري دفعة واحدة ! وهذا طبعاً فرض لايستقيم بحال من الاحوال . اذا اين يمكن ان نجد اصول الابجدية الفينيقية ذات الاثنين وعشرين حرفاً ؟

ان اول خطوة جدية في سبيل الاجابة على هذا السؤال قام بها ايمانويل دوروجيه ، وهو باحث فرنسي تقدم سنة ١٨٥٩م الى الاكادمية الفرنسية بمذكرة حاول ان يشرح بها كيف ان كل حرف من احرف الهجاء الفينيقية قد اشتق من حرف مطابق له من احرف الكتابة المصرية الهيراطية . ولقد مرت سنوات كثيرة بعد ذلك والناس معتبرون هذا التعليل نهائياً ومقبولاً ، ولكن ابحاث علماء لاحقين ، وهي ابحاث استندت الى نقوش حديثة اكتشفت مؤخراً ولم تصل الى يد الباحث الفرنسي ، وهي نقوش نقوش تحوي حروفاً هجائية متطورة اكثر من الحروف التي حصل عليها دوروجيه ، وقد نقضت نظرية الباحث الفرنسي كلياً واعادت فتح الباب امعالجة السؤال المطروح من جديد .

ولقد اقترح سيرارثر ايفانس في سنة ١٨٩٥م نظرية الاصل الكريتي للالفبائية الفينيقية . فقد قال ان من الممكن ان تكون الكتابة التصويرية الكريتية واحرف الكتابة اللينة المقطعية التي استعملها اهل كريت المتأخرون هي اصل الالفبائية الفينيقية . انه ليس من المستحيل ، طبعاً ، ان يكون اللاجئون الكريتيون الذين هربوا من الزلازل المدمرة التي اجتاحت جزيرتهم ودمرت حضارتهم في حدود سنة ١٢٠٠ ق.م قد حملوا معهم الى فلسطين نظامهم الكتابي الخاص بهم . ولكن الاحرف الكريتية لما تحل وتفهم رموزها حلاً كاملاً ومرضياً ، ومالم تغزر معلوماتنا عنها فان اقتراح الصلة بين هذه الرموز والالفبائية الفينيقية يبقى مجرد اقتراح ولااكثر .

ان روح المحافظة الدينية والحكومية في مصر ، والى حد كبير في بلاد الرافدين ، قد ثبتت اشكال الكتابة الهيروغليفية المصرية ، واشكال الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين . وهكذا فان الحروف في احدث الاثار المصرية تتطابق عملياً مع نفس الاحرف التي وجدت على اقدم الأثار . ولكن لما بدأت الحروف الهجائية في الظهور ، لم تستطع القوى المحافظة ان تمنعها من الظهور . لقد اصبحت الكتابة ذات فائدة عامة ونفع عام ، واصبحت اداة التجار ورجال الاعمال الذين رفضوا ان يعانوا ازعاج تعقيدات نظم الكتابة القديمة . ان اولئك الذين استعملوا الالفبائية البدائية استعملوها بملء الحرية ، وذلك حسب رغبتهم وفائدتهم . ويجب ان نلاحظ ان شكل الحروف قد تغير عبر الازمان والامكنة ، وذلك اثناء انتقالها من بلاد الفينقيين الى بلاد اليونان ومنها الى روما القديمة ، ومن روما القديمة الى اوربا حتى عهد اختراع الطباعة حيث جرى تثبيتها في شكلها الحاضر ، مع شيء يسير جداً من التغيير منذ ذلك الومن حتى الآن .

ولقد اقترح بعضهم ان الكتابات المسمارية التي استعملها الحثيون القدامى في اسيا الصغرى والبابليون والاكاديون والسومريون في بلاد الرافدين وطوروها قد تكون الاصول الاولى للابجدية الفينيقية .ولكن المشكلة التي نواجهها اذا اردنا الافتراض ان الكتابة الحثية القديمة كانت هي اصل الابجدية الفينيقية هي انه لم يعرف شيء بعد حتى الان من معاني الاحرف الحثية ، ولذلك فان مثل هذه النظرية غير مقبولة كلياً . على حين ان نظرية الاصل البابلي للابجدية الفينيقة قد تبدو اكثر معقولية . ذلك ان الفينيقيين ، بموجب المأثورات الشعبية ، قد هاجروا من منطقة الخليج العربي الى الساحل السوري في اواسط الالف الثالثة ق.م في نفس الوقت الذي قاد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام قدماء العبرانيين في هجرتهم من بلاد الكلدان الى ارض الكنعانيين .

ان الكتابة البابلية القديمة المقطعية لم تكن قد اختفت نهائياً ولم يكن قد حل محلها كلياً الخط المسماري وذلك زمن الهجرة الفينيقية حسب المأثورات الشعبية . ومن المفيد ان نلاحظ ان المهاجرين من الممكن ان يكونوا نقلوا معهم بعض المعرفة المتعلقة بالكتابة آنذاك .ولقد عرفنا من السجلات المصرية في وقت متأخر كل

التأخير ، في حدود ١٣٠٠ ق.م ، ان البابلية اصبحت لغة التخاطب الدبلوماسي الرسمي في العلاقات الدولية ، وهذا يعني ان البابلية كانت معروفة آنذاك في فلسطين وبين الفينيقيين ، على الصعيد الرسمي على الاقل . ولكن ذلك لايبرر الاستنتاج ان ذلك قد اثر على الفينيقيين فجعلهم يشتقون حروف ابجديتهم من الحروف البابلية . هذا اذا افترضنا ان البابلية استعملها الفينيقيون لغة التخاطب اليومية بينهم . لقد ظلت الفرنسية لغة التخاطب الدبلوماسي والراقي في اوربا سنوات طويلة ، ولكن هذا الاستعمال لم يؤثر قط في لهجات التخاطب ولغات مختلف شعوب القارة الاوربية .

وقد ذكر الكتاب الرومان القدامى ان الفينيقيين حصلوا على ابجديتهم من مصر ، وقد نادى بهذه النظرية عدد من البا-حثين المحدثين ، ولكن لفترة ، ثم ثبت فساد هذه النظرية . ذلك ان الكتابة المصرية لها مئات العلامات ، والابجدية الصحيحة يجب ان يكون فيها لكل صوت علامة واحدة ، وكل علامة يجب ان تكون صوتاً واحداً بينما في الكتابة المصرية توجد علامات كثيرة لنفس الصوت . ومن القائلين بالنظرية المصرية دونان[1] . ولايمكن ان تكون مشتقة من الكتابة المصرية الديموطية لان هذه اتت بعد الابجدية .

هذا ولم يبق شيء من الثقافات القديمة التي نبعت في ذلك الشريط الساحلي الممتد على سواحل سورية من الشمال حتى حدود سيناء ، والذي سكنه الكنعانيون ، وهم الشعب الذي اسماه اليونان باسم الفينيقيين ومنه اشتقوا ابجديتهم . ولكن يبدو لنا انه وجدت ثقافة موغلة في القدم نبعت وتمركزت في الاقليم الواقع جنوب بلاد الفينيقيين ويصل بين بلادهم وبين مصر . واذا اتجهنا في بحثنا هذا الاتجاه نكون سائرين في الاتجاه الصحيح ، ذلك انه وجدت في السنوات الاخيرة ادلة تثبت وجود مثل هذه الثقافة ، التي ، رغم انها بدائية ، الا انها تمثل حلقة الوصل بين الفينيقيين ومصر ، ووجدت ايضاً نقوش وكتابات تقدم دليلاً قوياً عن اصل الابجدية الفينيقية .

فقد اكتشف سيرفلاندرز بيتري عالم المصريات الشهير سنة ١٩٠٥ م في شبه

(١) حداد ، جورج . المدخل إلى تاريخ الحضارة . دمشق ، الجامعة السورية ، ١٩٥١ م ص ١٢٤

جزيرة سيناء ، في الشريط الساحلي الواقع على ساخل البحر الاحمر جنوبي شرقي برزخ السويس بعض الادوات الحجرية المغطاة بنقوش مكتوبة باحرف يبدو انها هجائية . هذا ولم تعلم اهميتها تماماً الا سنة ١٩١٦ م . ولقد بلغ عدد النقوش حوالي خمسة عشر نقشاً استعمل في كتابتها حوالي ٢٢٥ حرفاً ، طرح منها جانباً حوالي ٣٠ حرفاً وذلك بسبب تآكلها وعدم وضوحها ، ولقد اكتشف في هذه النقوش ٢٥ حرفاً تتكرر باستمرار ، وهذا اعطى الانطباع ان هذه الحروف ألفبائية . ولسوء الحظ فان جميع النقوش مختصرة كل الاختصار ، وندرة منها يمكن اعتبارها مجرد احرف . وهناك اتفاق شبه عام على ان لغة النقوش سامية . ولقد اكتشف في هذه النقوش اربعة احرف تكررت عدة مرات ، وتمكن آلان غاردنر . وهو باحث انكليزي متخصص في دراسة آثار مصر ، ان يقرأ هذه الاحرف وان يكتشف انها تشكل كلمة بعلة الالهة السامية المعروفة . ولقد جرت دراسات كثيرة حول هذه النقوش ولكن النتائج متباينة . فقد درسها سبرينغلينSprenglin ونشر سنة ١٩٣١م ترجمة وشرحاً لتلك النصوص ، وقد اعتبر عمله محاولة جديدة جداً وناجحة في هذا المضمار ، وبموجب دراسته هذه فان لغة النقوش سامية ، وهي تقدمات نذرية قدمها الى الالهة السامية شعب سامي كان يعمل في مناجم سيناء . ولكن وجد باحثون آخرون لم يوافقوا على هذا التفسير .

ومهما يكن فقد وجد في هذه النقوش بعض الرموز التي تشابه مشابهة تامة بعض الحروف في أقدم الكتابات السامية من جهة ، وتشابه كذلك بعض الرموز الهيروغليفية .

والذي يبدوا لنا هو أن حكام مصر وفراعنتها استأنفوا العمل في مناجم سيناء وجلبوا لها الأسرى والعمال من أرجاء العالم السامي . وخوفاً من هجوم البدو المتنقلين في سيناء على مصر فقد قام الفراعنة بتحصين سيناء لرد هجوم البدو ولحسن استغلال مناجم الفيروز في سيناء . ولقد قام بهذه المهمة عدد من الفراعنة على رأسهم امنمحت الثالث الذي جعل مركز سرابيط الخادم مستعمرة حقيقية من أجل استثمار الثروة المعدنية الموجودة هناك .

هذا وان حكم امنمحت الثالث كان في القرن الثامن عشر ق.م ، ولذلك يبدو من المعقول ان يكون تاريخ النقوش السينائية من اوائل القرن الثامن عشر

ق.م ، حيث بدأت مصر تستغل مناجم سيناء وتستخدم في ذلك عمالاً واسرى ساميين تحت اشراف موظفين مصريين . ولقد حدثت بعد ذلك اضطرابات خطيرة في مصر مما جعل مناجم سيناء تهمل .

كيف ظهرت الأبجدية في مثل هذه الظروف ؟

لابد لنا قبل ان نحاول الإجابة على مثل هذا السؤال من ان نذكر ان نظام الكتابة المصري في ذلك الزمن كان في حالة جيدة ومتطوراً في اتجاه نصف هجائي ، فقد وصل إلى حد تمثيل الفكرة باحرف تمثل رموز الأصوات للكلمات الملفوظة والتي تدل على تلك الفكرة ، ولكنه لم يصل الى حد تعيين حرف واحد وتخصيصه ليمثل صوتاً واحداً . ويمكننا ان نتخيل ان ماحدث في سيناء كان في تبسيط هذه الصيغة المعقدة وتخصيص علامة واحدة لكل صوت . هذا ويمكننا ان نتخيل الطريقة التي تمكن الساميون بواسطتها ان يتعلموا ويطوروا الحروف المصرية .

يبدو ان بعض الكتاب المصريين الذين عهد اليهم بامر تسيير الامور في مناجم سيناء وتسجيل الدخل والخرج في المناجم ، قد استعان ببعض الكتاب الساميين الأذكياء لتسيير الامور وذلك بأن علمهم فن الكتابة . ويبدو ان اولئك الساميين الاذكياء وجدوا نظام الكتابة المصري معقداً كل التعقيد ، ووجدوا ان بامكانهم التعبير عن نفس الافكار باحرف مختصرة فأوجدوا كتابة مبسطة مقتبسة من الكتابة الهيروغليفية . ولقد استعمل اوائل الكتاب نفس ادوات الكتابة المستعملة في مصر كالبردى والقلم الذي يشبه الفرشاة . وكانت طريقة كتابتهم للاحرف هي نفس الطريقة المصرية لكتابة الاحرف الهيراطية او الهيروغليفية ، ولكن اصاب هذه الاحرف تعديل وتغيير عندما بدأت تنقش على الصخر والحجر . ومن الاشياء المهمة في نقوش سيناء هو ان هذه النقوش تحوي حروفاً اكثر مماهو مستعمل في السامية الشمالية او السامية الجنوبية ، وهذا يقود الى الاستنتاج ان الفرعين الساميين اشتقا حروفهما من شكل اقدم من اشكال الابجدية السامية . ويجب ان تهمل النظرية القديمة القائلة ان الالفبائية السامية الجنوبية اتت من الفينيقية . ولقد تطابقت بعض الاحرف السامية مع مثيلاتها المصرية بسهولة تامة ، ولكن يجب ان نلاحظ ان الاحرف السامية لم تكن تمثل الاصوات

المصرية ، وإنما كانت تمثل قيماً صوتية اشتقت من السامية والكلمات السامية . ومن اجل تتبع واكتشاف الصلة بين الاحرف السامية والرموز الهيروغليفية يجب ان نبدأ من معاني الحروف السامية ، ذلك ان لاغلبيتها معاني واضحة محددة . وقد ازالت نقوش سيناء كل شك حول قيمة الاسماء في ايجاد الاشكال الاصلية للحروف . وعندما لايكون معنى الحرف واضحاً ، فاننا آنذاك فقط نجد صعوبة في معرفة الشكل المصري المناسب .

هذا وتقدم الرموز الهيروغليفية الفجة الموجودة في سيناء مادة انتقالية جيدة من اجل تأسيس وتتبع الصلة بينها وبين الاحرف السامية . ولكن لايصح القول ان اصل الفبائيتنا مصري ، ذلك ان الهيروغليفية مجرد رموز تصويرية اصطلاحية استعملها بذكاء احد الساميين ، وقد اخذ من الكتابة المصرية فقط القيمة الصوتية للحرف او الرمز مجرداً عما يعنيه في الاصل . وهذا يعني ببساطة ان صورة شيء ما اصبحت تستعمل لتصبح ممثلاً دائماً للحرف الاول من الكلمة التي يطلق عليها ذلك الشيء . وهكذا اصبح مخطط البيت يمثل الحرف (ب) وهو الحرف الاول من الكلمة السامية بيت .

هذا ولايزال العلماء مختلفين حول زمن اختراع الالفبائية . ولكن الاكتشافات الحديثة تجعل من الضروري ان يؤرخ الاختراع نفسه بتاريخ اقدم من تاريخ استعمال الاختراع . ولقد اكتشف في تل الجزر قطعة من الخزف حفر عليها ثلاثة احرف ، ويعتقد ان تاريخها يتراوح بين ٢٠٠٠-١٦٠٠ق.م . واحد الاحرف هو الشكل المربع لحرف (ب) ، ويبدو الحرف الآخر على شكل يد وربما يمثل كفاً .

ان اسلوب الكتابة هذا كان مجرد هيكل عظمي لحوالي ٢٢ حرفاً ساكناً . ولقد سخر المصريون حتماً عندما شاهدوا مستخدميهم في سيناء يكتبون بهذه الطريقة المختصرة ، ولكنهم لم يعلموا ان هؤلاء المستخدمين كانوا يضعون الاساس لاعظم اختراع في تاريخ الانسانية ، الا وهو اختراع الابجدية .

ويبدو ان هذه الابجدية البدائية التي ولدت في سيناء قد حملتها تيارات الهجرة المتلاحقة والتجارة المتصلة جنوباً بشرق الى شبه الجزيرة العربية وشمالاً الى

فلسطين . ولقد حدثت بين الفرعين اختلافات عميقة ، ولكن يبدو لنا ان الفرع الشمالي كان الاصل الذي اشتق منه قدماء الفينيقيين اقدم ابجدياتهم .

وعلى الرغم من ان هذه النظرية ، النظرية التي تقول بالاصل السينائي للابجدية الفينيقية ليست كاملة ولامتسقة التفاصيل ، الا انها اكثر النظريات التي طرحت حول هذا الموضوع معقولية . ومما لاشك فيه ان الفينيقيين قد طوروا اختراعهم هذا متأثرين بمؤثرات اخرى من مصادر مختلفة ، ولكن يبدو ان الاصل السينائي للابجدية الفينيقية معقول وثابت .

والحقيقة يعتبر اختراع النظام الهجائي ونشره وتطويره اعظم منحة قدمتها الحضارة السورية القديمة الى البشرية جمعاء .

ولقد حافظ اليونان على الاسماء السامية للحروف وعلى شكلها العام وترتيبها . وكانت الحروف تكتب ، في اقدم الكتابات الاثرية اليونانية من اليمين الى الشمال كما في الكتابة الفينيقية . واعترف اليونان بفضل الفينيقيين وبما نقلوه عنهم كما يبدو ذلك في قصة قدموس الذي إليه ينسب إدخال ستة عشر حرفاً إلى بلاد اليونان من فينيقيا . وإذا جردنا قصة قدموس من زخارفها الشعرية المتعددة ، فإنها تشير إلى أن المهاجرين من سورية أدخلوا إلى بلاد اليونان الأبجدية وفن التعدين وعبادة ديونيسيوس إله الخمر .

هذا وان اقدم نقش معروف تظهر فيه الابجدية الفينيقية يعود الى فترة تبعد اكثر من ستة قرون عن تاريخ نقوش سيناء . وهي فترة تقدم فرصاً عظيمة ووقتاً متسعاً من اجل كسب الخبرات في حقل الكتابة الابجدية ، وفيها فرص كثيرة يمكن لانظمة كتابية اخرى كالكريتية والحثية والبابلية ان تساهم في تطوير وتحسين الكتابة الابجدية . ان الفينيقيين شعب عملي وقد احتكوا اثناء تجارتهم وارتحالهم بمختلف الشعوب والحضارات ، ولذلك يبدو معقولاً تماماًان يكونوا استمدوا اشكالاً لحروفهم من شعوب متعددة . ولكن اذا كان هذا قد حدث فقد تم بذكاء وحسب حاجة الفينيقيين انفسهم ، وعدلوا في هذه الاشياء وطوروها حتى تناسب حاجاتهم واستعمالاتهم . ولكن المهم في الامر هو انه خلال هذه القرون الستة لم تتغير وظيفة رموز الاصوات الممثلة للكلام الانساني تغيراً كبيراً ، وانما بقيت كما

هي الى حد كبير . ان مبدأ الكتابة الفبائياً عاش وتطور بين عدد ضئيل من الشعوب السامية كانت تعيش في منطقة ضيقة من الارض ، واقل اهمية سياسية وعسكرية من غيرها ، على حين ان شعوباً قوية وكبيرة كالاشوريين والمصريين ظلوا يتابعون كتابة لغاتهم باساليبهم الكتابية المعقدة والحاوية على مئات الرموز .

ان اقدم نص فينيقي معروف استعملت فيه الحروف الهجائية ، يكشف عن تطور ملحوظ وعن نضج اصاب الابجدية ،ممايعطي الانطباع ان هذه الابجدية قد استعملت ولابد فترة طويلة من الزمن حتى وصلت الى ما وصلت اليه من نضج وتطور . ولقد اكتشف هذا النص بحاثة فرنسي سنة ١٩٢٣م هو الاثري الفرنسي دونانDunand وقد اكتشفه على تابوت ملك من ملوك مدينة جبيل السورية الساحلية الواقعة قرب طرابلس يدعى أحيرام . ويقرأ النص من اليمين الى الشمال وهو عبارة عن اهداء للقبر والتابوت قدمه للملك احيرام ابنه ، مع صب اللعنات على كل من يحاول اغتصابه . وتبدو الابجدية هنا ايضاً ساكنة تماماً وينقصها احرف تمثل الحروف الصوتية والحركات . ويعود تاريخ هذا النقش الى حدود ١٢٥٠ ق.م . كذلك اكتشف بقايا مزهرية او جرة برونزية في قبرص وعليها كتابة تعود الى عهد الملك حيرام الذي كان على علاقة صداقة مع سيدنا سليمان ، واذا كان ذلك صحيحاً فان تاريخها يعود الى القرن العاشر قبل الميلاد .وقد لوحظ تطور خطير في الكتابة وهو بداية الكتابة من اليسار الى اليمين . وهذا يعني ان الحروف قد عكس وضعها لكي تتلاءم مع اسلوب الكتابة الجديد . فمثلاً الحرفA مرسوم بهذه الطريقة ⋖ . على ان هناك بحاثة اخرين يقولون ان حيرام هذا ليس هو الملك المذكور في التوراة على انه صديق سليمان ، وانما هو ملك آخر بنفس الاسم من ملوك صيدا اتى بعد الاول بحوالي قرنين . ولذا فهناك شك حول محتويات وتاريخ هذا النقش . وعلى هذا يصبح حجر مؤاب الشهير الموجود حالياً في متحف اللوفر ثاني اقدم اثر نقشت عليه ابجدية سامية . وجدت هذا الاثر سنة ١٨٦٨ م في جوار البحر الميت في فلسطين بعثة تبشيرية نصرانية وسمي باسم حجر مؤاب لان المنطقة التي اكتشف فيها هي منطقة مؤاب .

ان نقش حجر مؤاب هو سجل خلد به ملك مؤاب ميشا ثورة شعبه ضد يرهام ملك اسرائيل وخلاصه من ذلك الحكم . وكان ذلك في القرن الثامن ق . م . وعلى الرغم ان هناك خلافاً في التفاصيل الواردة في هذا النص والتفاصيل التي يوردها الاصحاح الثاني من كتاب الملوك في العهد القديم ، الا ان الأمر المهم في الموضوع هو أن الأحرف التي كتب بها ذلك النص تحمل بعض المشابهة لأحرف الأبجدية الأوربية المعاصرة .

وعلى العموم يمكن القول ان نظام الكتابة الابجدي اوجده الفينيقيون المقيمون في جبيل على الساحل السوري في زمن موغل في القدم يمكن ان يؤرخ في القرن الثامن عشر ق . م . . ويوافق اغلب البحاثة على هذا الرأي . وعدد احرف هذه الالفبائية اثنان وعشرون حرفاً ، وكلها حروف ساكنة وكان على القارىء ان يوجد هو نفسه الحركات والاحرف الصوتية . ويمكن موازنة هذه الابجدية ببعض المختصرات الانكليزية الحالية مثلYRمن اجلYear(سنة) وBldg من اجلBuilding (بناء) وهكذا .

وقد اوجد فينيقيون آخرون وهم الذين عاشوا في اوغاريت (وهي رأس شمرة الواقعة شمالي اللاذقية في سورية في الوقت الحاضر) نظاماً ابجدياً آخر على اساس مختلف . فقد كتبوا الابجدية باسفين على الواح من الطين ولذلك اخذت كتابتهم شكل علامات مسمارية او اسفينية . ولقد كانت اوغاريت مملكة فينيقية ذات تجارة واسعة مع مصر وبلاد اليونان واسيا الصغرى . وقد تم الكشف عن هذه المملكة سنة ١٩٢٩ م . وكانت مجهولة قبل ذلك التاريخ . وقد كتبت جميع سجلات هذه المملكة على الواح من الطين واستعمل في كتابتها الابجدية التي اخترعها سكانها . ويرجع تاريخ هذه السجلات الى القرن الخامس عشر وبعضها ابكر من ذلك بكثير .

وقد اكتشف في خرائب اوغاريت هذه الفبائية قديمة تحوي ٣٠ حرفاً ، وتبدو هذه الابجدية كانها اشتقت من الفبائية اقدم . ويوجد في المتحف الوطني في دمشق لوحة فخارية استخرجت من اوغاريت عليها الحروف الثلاثون لهذه الالفبائية ، ولعلها اقدم سجل كتب عليه حروف الالفبائية في العالم ولعلها كانت

مستعملة من اجل تعليم النشىء الابجدية . ويبدو انه وجد في سورية بعد ذلك الوقت بقليل نظامان ابجديان مختلفان بعض الاختلاف ومتحدران من الفبائية اقدم تعرف الاولى باسم السامية الشمالية والثانية السامية الجنوبية . وقد اتت من السامية الجنوبية الالفبائية الامهرية والقبطية ، واتت من الشمالية الفينيقية مع حروفها الساكنة ال ٢٢ حرفاً .

واغلب البحاثة يوافقون على ان الفينيقيين هم الذين اوجدوا نظام الكتابة الهجائي ، وانهم استمدوا قسماً من مادتهم من اصول مصرية هيروغليفية ، ولكنهم طوروها حسب حاجتهم التي جعلتهم يوجدون مثل هذا النظام السهل الذي يسهل الاعمال التجارية وحفظ السجلات من اجل التبادل التجاري والمحاسبات .

وقد انتقلت هذه الابجدية الى بلاد اليونان عن طريق الفينيقيين الذين كان لهم علاقات تجارية ضخمة مع شعوب البحر الابيض المتوسط وبخاصة بلاد اليونان . هذا وان الاصل السامي الفينيقي للابجدية اليونانية لاشك فيه .

فقد كان هناك لغة يونانية وخط يوناني في بلاد اليونان قبل القرن الثاني عشر ، ولكن الغزو الدوري للبلاد في حدود ذلك الزمن دمر تلك الحضارة واللغة وظلت البلاد مئات السنين بدون لغة مكتوبة . ومن المهم ان نلاحظ وجود تشابه يصدم الانسان بين حروف اقدم النقوش اليونانية وحروف نقوش جبيل وغيرها .

اضافة الى ذلك فانه يبدو واضحاً ان الاسماء اليونانية للحروف اشتقت من اصل سامي . فهذه الاسماء لها اهمية ولها معنى محدد في اللغة السامية ، على حين لامعنى لها باليونانية . وترتيب الحروف في اقدم النقوش التي وصلت الينا من اليونانية هو نفسه ترتيب السامية . الى جانب ان المأثورات اليونانية القديمة تنسب الى الفينيقيين انهم هم الذين ادخلواالالفبائية الى بلاد اليونان وتسمى الاحرف باسم الاحرف (الفينيقية) .

هذا ولايزال هناك جدل كبير بين الباحثين والعلماء حول الزمن الذي دخلت فيه الابجدية الفينيقية الى بلاد اليونان وشقت طريقها عبرها . فبعضهم مثل رايس كاربانتر يجعل دخول الابجدية الى بلاد اليونان في حدود ٧٠٠ ق . م ، على

حين ان باحثين آخرين مثل السيدة ستيلويلStillwellتجعل هذا التاريخ في حدود ٧٦٠ ق . م . ولذا يمكن القول بسلامة ان القرن الثامن ق.م شاهد دخول الابجدية الفينيقية الى بلاد اليونان . ولقد كان للفينيقيين مستعمرات او مراكز تجارية في كل من ميلوس ورودس وغيرهما من جزائر البحر الايجي وذلك منذ اوائل القرن الثالث عشر ق.م ، ثم اسسوا فيما بعد مراكز اخرى في كل من تاسوس وساموتراس وكورنت وغيرها من المراكز . ويبدو ان اوائل اليونانيين تعجبوا من هذه الاداة العجيبة الغامضة في التسجيل والحساب عندما كان الفينيقيون يأتون الى سواحل بلادهم ويتاجرون معهم ، وبعد فترة اتخذوها هم انفسهم . يذكر هيرودوتس الذي يوصف انه ابو التاريخ ان جماعة من الفينيقيين يقودهم البطل قدموس نزلوا في جزيرة ثيراTheraوهناك قلعوا اسنان الثعبان (وهذه غالباً اشارة إلى الألفبائية الفينيقية)، ثم انتقل بهم إلى بوكوتيا Bocotia وهي بلد من أرض اليونان حيث أدخل فن الكتابة إلى بلاد الإغريق . ولقد فسر اليونان اسطورة قدموس هذه على أنها تجسيد لقوى الثقافة والحضارة الأجنبية التي اثرت بعمق وقوة في حياة اليونان القديمة .

ان اقدم نص كتابي واكثرها بدائية من الابجدية اليونانية قد اكتشف في جزيرة ثيرا نفسها مكتوباً ومنقوشاً على مزهرية ديبيلونDipylon ، وقد صنعت هذه المزهرية في القرن الثامن ق.م . ولقد وصفت حروف هذا النقش انها تقريباً حروف ابجدية فينيقية خالصة ، وانها كتبت من اليمين الى الشمال كالكتابة الفينيقية .

هذا وان دراسة موازنة لما خلفه قدماء اليونان من كتابات هجائية قد كشفت عن ان قدماء اليونان قد تصرفوا بحرية مطلقة في كتاباتهم ، ولذلك اتت هذه النصوص مختلفة ولارابطة بينها . ولقد ظل اليونانيون يستعملون مايمكن ان يسمى (الاسلوب الحر) في كتابة الالفبائية . وذلك لمدة تزيد على المائة سنة بعد دخول الالفبائية الى بلاد اليونان ، ولكنهم بعد قليل تمكنوا ان يعدلوا في هذه الابجدية بحيث اصبحت تناسب حاجاتهم واهتماماتهم . فقد ادخلوا على الابجدية عنصرين مهمين كل الاهمية . الاول الكتابة من اليسار عن اليمين بدلاً

من الكتابة من اليمين الى الشمال ، وهذا الشيء لازال مستعملاً في جميع الابجديات الاوربية حتى ايامنا هذه . كذلك طوروا بعض الاحرف الفينيقية فجعلوها تمثل بعض الاحرف الصوتية وبعض الحركات الصوتية .

لقد كتب الفينيقيون ، كما ذكرنا ذلك سابقاً ، ابجديتهم وحروفهم من اليمين الى اليسار . وقد كتب اوائل اليونانيين كتابتهم بنفس الطريقة ونفس الاتجاه ، ثم بعد فترة بدأوا يكتبون باتجاهين متعاكسين ، من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين . فهناك نقوش يونانية تمثل هذين الاتجاهين المتعاكسين ، كما في نصب ليمنوسLemnos الذي يعود تاريخه الى القرن السادس ق.م وعليه نقوش تجري الكتابة فيها من اليمسن الى الشمال ومن الشمال الى اليمين حسب الاسطر . كذلك وجدت نقوش كتبت بشكل عمودي او باسلوب سمي باسم كتابة الافعىSnakewriting ، وذلك لتلائم الكتابة سطح اناء من الآنية او تعرجات تمثال نصفي . ولكن هذا الاتجاه كان استثناءً والشائع هو الترتيب الافقي . بعد ذلك بفترة تثبت الاتجاه من اليسار الى اليمين وساد هذا الاتجاه حتى الآن في اوربا ، ويبدو ان التغيير حدث نتيجة لاستعمال اوراق البردى ولوحات الشمع مادة للكتابة . على حين حافظت بعض الابجديات السامية ـ كالعربية والعبرية ـ على الاتجاه اليميني الموروث عن الفينيقيين . ونحن نعلم ان الابجدية الفينيقية التي اقتبسها قدماء اليونان كانت احرفاً ساكنة بشكل شبه تام وشبه كامل . وقد وجد اليونانيون صعوبة في التعبير بهذه الاحرف الساكنة عن لغتهم ، وهي لغة تضم عدداً من الاصوات الناطقة المهمة المعبرة ، ولذلك فقد اعطوا قيماً صوتية لعدد من الاحرف الفينيقية الساكنة التي ينطق بها اثناء التنفس وجعلوها ممثلة لعدد من الاصوات اليونانية الناطقة .

وترينا اقدم النصوص التي اكتشفت في ثيرا استعمال خمسة رموز على انها احرف صوتية حقيقية . ولقد اوجد اليونانيون فيما بعد ، مزيداً من الحروف تمثل الاحرف الصوتية الاخرى في لغتهم ، وكذلك دمجوا حرفين او اكثر للتعبير عن بعض الاصوات المعقدة مثل حرف شCh وهكذا . كذلك بدأ يظهر عندهم بعض التنقيط وتقسيم الجمل الى فقرات . ولكن لم يكن هناك حروف كبيرة

لبداية الجمل ولافراغ بين الكلمات . هذا وان اضافة الاحرف الصوتية الى الابجدية كانت اعظم خدمة يؤديها الذكاء اليوناني في هذا المجال .

ولقد تطورت الابجدية تطوراً مغايراً لما مر في كثير من اقسام وبقاع العالم اليوناني القديم . ذلك ان اليونانيين ، على الرغم من انهم شعب واحد وجنس واحد ويتكلمون عدداً من اللهجات من نفس اللغة ، الا انهم لم يكونوا موحدين سياسياً او ثقافياً ، فقد كانوا مقسمين الى عدد من المجموعات التي تتميز جغرافياً عن غيرها من المجموعات ، ويغلب على الجميع الصبغة الفردية ، مما جعل من الصعب جداً على اي فريق من الفرقاء ان يعيش في سلام ووئام مع بقية الفرقاء . ولذلك فانه ليس مفاجأة لنا ان نعلم انه لم يتخذ نظام هجائي موحد في بلاد اليونان الا في وقت متأخر نسبياً .

لقد اتخذت اغلب دول المدن اليونانية لنفسها انظمة هجائية تختلف عن بعضها بوناً شاسعاً ، حتى انه امكن تمييز عشرة انظمة كتابية تختلف فيما بينها في شكل ووظائف حروفها .

ـ ولكن اذا اهملنا كثيراً من التنوعات المحلية ، فإن بامكاننا ان نميز بين خطين من خطوط التطور سارت فيهما الابجدية في بلاد اليونان ، وهما مايمكن ان يدعيا الابجدية الشرقية والابجدية الغربية . ان الابجدية الشرقية ، وهي الاقدم ، هي الابجدية التي استعملها الفرع الايوني من العرق اليوناني ، وقد نمت وتطورت اول الامر في جزائر البحر الايجي وفي مدن سواحل اسيا الصغرى ، ثم انتقلت الى البر اليوناني ، ولقد اصبحت ابجدية اثينا بشكل رسمي سنة ٤٠٣ ق . م وذلك بعد انقضاء الحروب البيلوبونيزية Peloponnesian. وعلى الرغم من انها لم تتطور تطوراً ذا غناء منذ سنة ٤٠٠ ق . م ، الاانها اعيدت الى الحياة واصبحت ابجدية بلاد اليونان الحديثة . وعدد حروفها ٢٤ حرفاً وهي ادق في التعبير عن الكلمات والاصوات الملفوظة . وقد استعمل عدد من حروفها في ابجديات بلغاريا ويوغوسلافيا وروسيا وغيرها من الامم الصقلبية .

ولقد نالت هذه الابجدية الشرقية شهرة واسعة ، وذلك على الرغم من خلافها الشديد مع حروف ابجديات اوربا الغربية المستعملة الان ، بسبب

استعمالها حرفين اساسيين هما X,H على الرغم من أن هذين الحرفين يمثلان اصواتاً وقيماً مختلفة في الأصل عما هو في اللغات الأوربية الحديثة .

اما الابجدية الغربية فقد اصبحت الاصل الذي تفرعت عنه ابجديات اوربا الغربية في الوقت الحاضر . ذلك ان الرومان تبنوا هذه الابجدية واتخذوها ابجديتهم وانتقلت معهم في سائر انحاء اوربا . ولما تفرعت اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والانكليزية عن اللاتينية اتخذت الابجدية اللاتينية المشتقةمن الابجدية الغربية اليونانية اداة للكتابة واسلوباً . واغلب حروفها حروف الابجدية الغربية ، على الرغم من ان عدداً من الاحرف تغير شكلها ووظيفتها .

لقد تتبعنا تطور الابجدية الفينيقية ونفوذها الى اوربا بشيء من التفصيل لاهمية ذلك في حياة اوربا وتطورها . والآن علينا ان نتتبع سير هذه الالفبائية في اتجاه آخر . ذلك ان احرف الهجاء الفينيقية لم تسر فقط غرباً ، وانما سارت ايضاً شرقاً باتجاه معاكس ومغاير للاتجاه الاول .

لقد استعمل اليهود ، قبل الاسر البابلي ، الابجدية الفينيقية في صفائها الاصلي ، كما يبدو ذلك بوضوح من النقوش والنقود اليهودية . وقد بدأ التجار الآراميون الذين ظهروا في سورية في اواخر القرن الحادي عشر ق . م ينشرون لغتهم في مختلف البلاد التي حلوا بها ، وحملوا معهم الابجدية الفينيقية التي كتبوا بها لغتهم وطوروا الابجدية الفينيقية لهذه الغاية . ذلك ان الآرامين ورثوا الفينيقيين كتجار في اسيا الغربية ، فالاراميون تجار البر واتجهوا شرقاً على حين كان الفينيقيون تجار البحر وتجهوا غرباً ، ولقد كان للآرامين نشاط تجاري واسع النطاق حتى شمل الهند والصين وقلب اسيا الوسطى .

وقد تفرعت اللغة الارامية من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية وحملها الاراميون حيث حلوا وكتبوها بالابجدية الفينيقية . ومع انتشار اللغة الارامية انتشرت الابجدية الفينيقية التي كان الاراميون اول من اقتبسها وطورها واستعملها . واستعملت في لغات اخرى في القارة الاسيوية . ولقد استعمل اليهود اللغة الارامية والكتابة الارامية اثناء اقامتهم اسرى في بابل بعد خراب بيت

المقدس واسرهم بيد بختنصر . كذلك استعملها البابليون والاشوريون واصبحت منافساً قوياً وخطيراً للكتابة المسمارية .

ولقد احضر اليهود معهم الى القدس ، بعد تحريرهم من الاسر البابلي ، الابجدية الارامية ، حيث تطورت الى مايعرف باسم الكتابة اليهودية القديمة في القرنين الثاني والاول ق.م . وقد اشتق من هذه الكتابة اليهودية القديمة ، بعد فترة طويلة من الزمن ، الكتابة العبرية المربعة التي يستعملها اليهود الآن .

هذا وان الابجدية اليدشيةYiddishهي تعديل وتطوير للعبرية الحالية .

ولقد انتشرت الابجدية الارامية في سورية وتطورت تطوراً كبيراً واشتق منها الكتابة السريانية التي عاصرت ظهور المسيحية وانتشارها في سورية واستعملها السريانيون كثيراً . لقد انتشرت السريانية المشتقة من الارامية في منطقة واسعة شمال فلسطين ، واشهر نقش من نقوشها هو مايسمى باسم Estrangela. وقد استعملت في كتابتها حروف الابجدية الفينيقية ال ٢٢ الساكنة ، ولكن تغيرت اسماؤها . وكتبت الكتابة من اليمين الى الشمال . وقد تبنت اللغة السريانية والابجدية السريانية الشيع المسيحية المنشقة عن الكنيسة الرسمية . وقد تطور من السريانية فرعان غربي وشرقي وذلك بعد سنة ٤٣١ ق . م . وقد سمي الفرع الغربي باسم سيرتاSerta وتفرع عنه فرعان آخران الاول اليعقوبي والثاني الملكي . وقد دعي الفرع الشرقي باسم الفرع النسطوري نسبة لنسطور الذي انشق عن الكنيسة البيزنطية واسس شيعة النساطرة . وقد تغلغل النساطرة في قلب اسيا وحملوا معهم عقيدتهم ولغتهم وكتابتهم . وقد تبنى الصغد الكتابة الارامية وذلك بين سنتي ٥٠٠ و ١٠٠٠م . وعلى الرغم من ان لغة الصغد هندية اوربية ، الاان كتاب الصغد استخدموا الكتابة الارامية بشكل جميل وذكي .

كذلك نجد تأثير الخط الارامي في كتابات الايغورUigher ، وهم قوم من الترك اسسوا امبراطورية مهمة قوية في قلب اسيا الوسطى في القرن الثامن ميلادي في بلاد المغول . كذلك ظهر نفوذ الخط الارامي في كتابات شيعة ماني الذي اوجد ديانته سنة ٢٤٧ م وهي ديانة مشتقة من عناصر مسيحية وزرادشتية مع عناصر صوفية غنوطسية .

وهكذا فقد نفذت الكتابة واللغة الارامية التي تدعى ام اللغات ، الى قلب اسيا وقدمت الاساس لتطور جميع لغات المنطقة باستثناء الصينية . فقد حصل الارمن والفرس والهنود على ابجديتهم من مصادر آرامية ، كما وان حروف الفهلوية والسنسكريتية من اصل ارامي . وحمل الكهنة البوذيون من الهند الابجدية السنسكريتية الى قلب الصين وكوريا والتيبت . وهكذا وصلت الحروف الفينيقية شرقاً بطريق الارامية الى الشرق الاقصى ، وغرباً بطريق اليونانية الى الامريكيتين فطوقت العالم باسره .

والآن ، وقد انتهينا من بحث اختراع الكتابة الابجدية الالفبائية ، لابد لنا من التساؤل عن اهمية هذا الاختراع في تاريخ الانسانية ، وماهي الاثار التي ترتبت على مثل هذا الاختراع .

لابد لنا من ملاحظة اولى في هذا الموضوع : وهي ان نظام الكتابة كان ، قبل اختراع الكتابة الابجدية وقفاً على طبقة معينة من الناس هي طبقة الكهان ، سواء في مصر اوبلاد الرافدين . وان الضرورة الاقتصادية هي التي ادت الى اختراع الابجدية ، وادت بالتالي الى كسر الحصر الذي فرضته تلك الطبقات على الكتابة . زعم الكهان لانفسهم حق الثقافة وان الكتابة شيء الهي ، فأتت الابجدية وانزلت الثقافة والكتابة الى الارض ، وجعلت بامكان الرجل العادي ان يتعلم بسهولة ويسر . كذلك ساهمت الابجدية في نشر التعليم بين جميع الطبقات وفي جميع الاعمار ، وذلك لسهولة تعلمها ومرونتها . ومما لاشك فيه ان اتقان تعلم واستعمال اثنين وعشرين حرفاً يحتاج الى جهد وذكاء اقل بكثير مما يحتاجه تعلم مئات الرموز والاشارات المعقدة . ولقد انقصت الابجدية الزمن الذي يحتاجه المرء للتعلم ، فبينما نرى الشخص الصيني يحتاج الى اكثر من عشر سنين حتى يتعلم اوليات كتابة لغته ، فان نفس المستوى من التعلم يبلغه الولد الذي لم يمض في المدرسة الابتدائية اكثر من سنتين اوثلاث في البلاد التي تستعمل الاحرف الهجائية .

وبالجملة فقد جعل اختراع الابجدية الثقافة والتعليم شعبياً وساهم في نشره بين اعداد متزايدة من بني البشر . وكسر حصر رجال الدين للثقافة والتربية

والعلم والتعليم ، وانقص عدد السنوات المطلوبة للتعلم ، وساهم في نقل تراث الانسانية عبر الزمان والمكان بشكل اكمل وأيسر من ذي قبل ، فهل تعرف اختراعاً آخر يقارب في اهميته ونتائجه اختراع الابجدية ؟ اللهم لا . لذلك نستطيع ان نقول ان القول الذي يعلن ان اختراع الابجدية هو اعظم اختراع في تاريخ الانسانية الثقافي العقلي هو قول صادق ولامبالغة فيه ، وان القول ان الابجدية هي من اهم منح الحضارة السورية الى الانسانية هو قول حقيقي ولامغالاة فيه .

obeikandl.com